التحديث في مدينة نابلس ودوره في نهضتها الاقتصادية والاجتماعية
1838 - 1948 م

د.أمين أبوبكر
جامعة النجاح الوطنية
كلية الآداب-قسم التاريخ

تعالج هذه الدراسة التحديث بمجالاته المختلفة واثره في نهضة المدينة الاقتصادية والاجتماعية منذ ان تمالكت انفاسها بعد الزلزال المدمر الذي ضربها عام 1837م في اواخر الحكم المصري وحتى نكبة عام 1948م التي حولتها شيئا فشيئا من مدينة تقليدية تتمحور في انشطتها العمرانية والاقتصادية والاجتماعية في محيط دار الحكومة او السرايا والمسجد الجامع والاسواق القريبة منها الى مدينة عصرية تتوسد ذراعيها على سفوح قمتي عيبال وجرزيم والطرق الرئيسية التي تربطها بالمدن الفلسطينية الاخرى وفي مقدمتها القدس وجنين وحيفا وطولكرم وقلقيلية ويافا والزحف شرقا وغربا نحو الامساك بايدي القرى المجاورة وشملها بتنظيماتها البلدية وركزت في ذلك على دخول النظم العثمانية الحديثة المسوحاة من النظم الاوروبية في مجالات الادارة والحكم والجيش الشرطة والعمارة والتعليم والصحة والنقل والمواصلات والاتصالات والبريد والانارة والحوالات المصرفية والبنوك والاستيراد والتصدير وانظمة الصرف الصحي والري ومواد البناء من دعامات وروافع معدنية وخشبية وقرميد واسمنت ودخول الالات الى ميادين العمل بدلا من طاقة الانسان والحيوان المتواضعة واستخدامها في مجالات ضخ المياه والري والانارة وتوليد الطاقة الكهربائية والغزل والنسيج والخياطة والحياكة والطحن والعصر وقطع الصخور وتفكيكها وكسيرها والنقل والحفر والجر الامر الذي ادى الى ارتفاع مستوى المعيشة وتطور مستويات الاستهلاك وهو ما يمكن معالجته في المحاور الاتية:-

التنظيمات العثمانية:-

لعبت التنظيمات العثمانية المستوحاة من النظم الاوروبية وفي مقدمتها الفرنسية دورا مهما في نهضة المدينة وتطورها الامر الذي جعلها من ابرز المدن الفلسطينية الرائدة في مجال التحديث فحملة الاعمار التي انطلقت في اعقاب الزلزال المدمر عام 1837م انطلقت تحت اشراف السلطة المصرية الحاكمة وهيئاتها المحلية التي تطلعت منذ قدومها الى بلاد الشام السير بها نحو الحكم المركزي غير المالوف في ظل الحكم العثماني منذ عام 1516م وان انسحابها تحت وطاة الضغط الدولي المناهض لها في احتلال بلاد الشام قد ارجع المنطقة بما فيها المدينة الى عهد الفوضى والحروب الاهلية بين الزعامات المحلية المتنافسة تحت شعار قيس ويمن وذلك بغية تحقيق المكاسب الاقتصادية والاجتماعية التي خسرتها ابان الحكم المصري والحصول على مكاسب جديدة وتصفية حساباتها مع الزعامات التي والت الحكومة المصرية.
وبالرغم من حالة الفوضى العارمة التي انتابت المنطقة الا ان المدينة حافظت على وتيرة تقدمها في ظل تطلعات الحكومة العثمانية نحو الاستفادة من التجربة المصرية في فرض نظام الحكم المركزي.
وقد استطاعت الدولة العثمانية عبر المحاولة والتجربة ان تفرض سياسة الامر الواقع وتعمد الى تطبيق فكرة الحكم المباشر التي رفضها السكان جملة وتفصيلا ابان الحكم المصري معتمدة في ذلك على برامجها الاصلاحية التي اعلنتها للرعية في خط شريف جولهانه عام 1839م وخط التنظيمات الخيرية عام 1856م وادواتها التنفيذية وفي مقدمتها قوات الجيش والامن التي استطاعت ان تخمد نيران الحروب الاهلية وتجبر الزعامات المحلية على الخضوع والطاعة بقوة السلاح وتحفاظ على السلم والهدوء حتى بداية الحرب العالمية الاولى عام 1918-1914م وكانت زعامة ال عبد الهادي زعيمة صف القيس في المدينة واريافها اول زعامة محلية اخضعتها الدولة عندما قوضت حصنها المنيع في قرية عرابة عام 1859م وحملت زعماؤها

على المنفى ومن عرابة اسمترت عمليات تقويض حصون الزعامات المحلية الواحدة تلو الاخرى الى ان احكمت قبضتها على جميع مقاطاعات الجبال الفلسطينية الثلاثة نابلس والقدس والخليل.
وبانتهاء الحروب الاهلية او القيسية واليمنية بين صفي طوقان جرار بني صخر-عبد الهادي عرب العدوان ان جاز لنا التعبير وما جرته من ويلات مدمرة على البنية السكانية والاقتصادية بين حين وآخر اخذت اواصر الامن بالاستقرار والثبات من يوم الى يوم وذلك من خلال مرابطة وحدات من الجيش والامن النظامية المدربة على احدث الاسلحة الاوروبية والمجهزة باحدث الاسلحة الشخصية والميدانية في معسكرات داخل المدينة واطرافها ناهيك عن دورياتها من الخيالة والمشاة التي كانت تقف على اهبة الاستعداد لحفظ الامن ومطاردة الاشقياء واللصوص وقطاع الطرق وزج كل من سولت نفسه باثارة الفتن والاضطرابات والاعتداء على هيبة الدولة في السجن.
وانسجاما مع سياسة فرض الامن والاستقرار بنت الدولة دار حكومتها او سراياها الجديدة على طرف الاحياء الجيديدة على طريق نابلس القدس كمجع للدوائر الحكومية بعيدا عن صخب الاسواق واغراءاتها والحقت بها مساحة واسعة من الارض لعرض الجيش على الموسيقى العسكرية واجراء التمرينات العسكرية وكان دخول استخدام القارب البخاري بين الموانىء العثمانية بما فيها حيفا ويافا وابو زابورة القائمم قبالة مدينة طولكرم بعد عام 1840م وربط المدينة بالتلغراف عام 1863م وتعبيد الطرق عام1870م ووصول الخط الحديدي الحجازي اليها عام 1907م قد سهل واسرع في طلب ونقل النجدات العسكرية والامنية من المناطق الشامية اليها.
ومما لا شك فيه ان فرض الامن والاستقرار من خلال مرابطة عدة طوابير من الجيش والشرطة قوام كل طابور منها الف جندي قد انعكس على هيئة البناء وانتشاره في المدينة ونشاطها الاقتصادي فنشاطها العمراني القديم وتشابك مبانيها وركونها على القناطر التي تظلل الممرات والاحواش والبوابات لتعزيز مقدراتها الدفاعية بات عليه ان يقف جانبا امام انشطتها الحديثة التي اخذت بالانتشار في بطن الوادي وسفوح عيبال وجرزيم والمعابر الرئيسية المودية الى المدن الفلسطينية الاخرى وتعزز هذا الانتشار بارتفاع معدلات النمو السكاني وتحسن مستويات المعيشة وتطور خدمات المجلس البلدي وفنون التخطيط والعمارة والهندسة وتوافر مواد البناء وادوات الحفر النقل.
وتطبيقا للسياسة الجديدة للحكومة العثمانية فقد توالى تطبيق التنظيمات في المدينة شانها في ذلك شان بقية المدن الفلسطينية وعملا بذلك فقد صدرت الارادة السلطانية بتشكيل المجلس البلدي فيهاعام 1869م وبذلك يعد ثاني مجلس بلدي يشكل في فلسطين بعد بلدية القدس وهو ما دفع عجلة الحداثة والاعمار فيها الى الامام على صعيد الهندسة والتخطيط والتجميل والتزيين والانارة في الاحياء القديمة وشق الطرق وبناء الادراج ومد شبكة الانابيب المعدنية لايصال مياه الشرب الى المنازل وتنظيم مواقف عربات النقل التي تجرها الحيوانات ثم السيارات والصرف الصحي وذبح الحيوانات وسلخها ودبغ جلودها وسوق بيع الدواب والدواجن وعمل الخانات واماكن الحرف والصنائع هو ما جعلها تنعم بخدمات بلدية قل نظيرها في فلسطين كانت محط اهتمام الرحالة والزائرين ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر فعلى سبيل المثال دشن المجلس البلدي كازية البلدية المعروفة ب"كازخانه" التي انيطت بحفظ مادة الكاز اللازم للانارة وتشغيل مضخات المياه وتعقيم المياه وتطهير الطرقات والممرات واماكن جمع النفايات

والقمامة للحيلولة دون تكاثر الحشرات والقوارض وانتشار الروائح الكريهة وبالتالي منع تفشي الامراض والاوبئة وذلك قبل ان يحال استيراده للقطاع الخاص وغالبا ما تم استيراده من الولايات المتحدة الامريكية في عبوات خاصة "جالون" عرف الواحد منها باسم السحارة.

دخول الآلات:-

يعد دخول الالات الى حيز العمل في المدينة والاعمال العامة ذات العلاقة من ابرز الميادين التي دفعت عجلة الحداثة ونهضتها الاقتصادية والاجتماعية الى الامام وبدأ ذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما تم استيراد البابور اوالفابور الالة البخارية لاستتخدمها في تشغيل انوال الغزل وطواحين الحبوب ومعاصر الزيوت وضخ المياه بدلا من طاقة الانسان والحيوان المتواضعة والتغلب على العقبات التي تنتاب بعض اعمالها ازاء تشغيلها على مجاري السيول والينابيع في المدينة بواسطة روافع القناطر او الشلالات الصناعية التي لا يزال بعضها قائما حتى اليوم في وادي التفاح والباذان الامر الذي زاد من فعالية انتاجها من المنسوجات والطحين وصناعة زيت السيرج والحلاوة وغيرها من الحلويات وفتح افاق جديدة في مجالات الحرف والصنائع وتعزز ذلك بتزايد دخول الالات من يوم الى يوم ووصل ذروته بدخول التلغراف والتلفون وذلك بعد ان اصبح استخدامها ليس مقصورا على الاجهزة الحكومية والعربات التي تجرها الخيول والثيران والسيارات والقطار والطائرات بعد فتح مطار القدس الدولي في عشرينيات القرن الماضي ووصول بث الاذاعة الفلسطينية من القدس الى المدينة عام 1936م حيث اصبح بمقدور السكان الاتصال والتواصل مع العالم الخارجي بسهولة ويسر عبر الاتصال المباشر وغير المباشر بوساطة التلفون والتلغراف والمكاتبات البريدية ونقل البضائع والسلع ومواد البناء عبر وسائط النقل والجر فدخول القطار الى حيز العمل عام 1907م اسهم في دفع عجلة البناء الى الامام بعد ان اسهم في نقل موادها المستوردة من الاسواق الاوروبية عبر من ميناء حيفا الى محطته في وسطها فظهرت سقوف البيوت الجديدة مضلعة ومزينة القرميد ومستوية محمولة على الدوامر والدعامات الخشبية بدلا السقوف المقببة كما اسهم مطار القدس الدولي في تسهيل مهمة تنقل المسافرين من الطلبة والتجار الى العديد من اقطار العالم للحصول على قدر وافر من التعليم وابرام عقود البيع والشراء كما اسهم دخول الراديو في قيام مجموعات كبيرة من المقاهي والمتنزهات على جانبي الطرق العامة في الاحياء الجديدة لاستيعاب ظاهرة اقبال الزبائن على سماع البرامج الاذاعية وفي مقدمتها الاخبارية لمتابعة ما يجري على الساحة الفلسطينية والاقليمية والعالمية من احداث وعلى وجه التحديد بعد وصول هتلر الى السلطة في المانيا.

وفي ضوء ذلك اخذت توجهات المجلس البلدي والسكان بصورة عامة والنخب من رجال والاعمال والمثقفين بصورة خاصة تتمحور حول تحقيق قدم السبق في استيراد الالات والاجهزة وادخالها للمدينة ونقل خبراتهم ومشاهداتهم التي يستقونها من الحارج حيث تحط رحالهم الى المدينة فعلى سبيل المثال لا الحصر كانت مشاهداتهم في مدينتي حيفا ويافا لاستخدام الطاقة الكهربائية في عشرينات القرن الماضي حافزا للتداول في مسالة ادخال المولدات الكهربائية للمدينة وبالتالي رفع مستوى الرفاهية فيها وتقديم افضل الخدمات في المؤسسات الحكومية والخاصة كالبلدية والدوائر الحكومية والمدارس والمقاهي والبقالات ومصانع الحلويات والمخايط والبنوك التي دخلت للمدينة في اواخر العهد العثماني واسهمت في تطوير حركة التجارة والاعمال المصرفية وفي مقدمتها البنك العثماني.

تطور قطاع الصحة والتعليم:-

يعد قطاع الصحة والتعليم من ابرز القطاعات التي انتابها التحديث واسهمت في نهضة المدينة وتقدمها على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر اخذ التعليم النظامي بالازدهار داخل المدينة على حساب التعليم التقليدي القائم في الكتاتيب والزوايا والمساجد والجوامع والكنائس والكنس والاديرة وتجسد ذلك بظهور المدارس النظامية او الحكومية وبات تطوير التعليم من اهم التوجهات التي عنيت بها الهيئات الحكومية والاهلية لما له من اثار ايجابية على التقدم والازدهار وحمل راية التحديث ومما يؤد ذلك الاقبال الشديد على التعليم النظامي وهو ما يظهره التزايد الملحوظ في اعداد المدارس والمعلمين والطلبة والخرجيين.
ويتجلى اهتمام السكان في التعليم في ايفاد العديد من الاهالي لابنائهم لكمال تحصيلهم العلمي في الجامعات والكليات العثمانية القائمة في اسطنبول والدول الاوروبية ومن ثم العودة لاحتلال اماكنهم في ميادين العمل المختلفة الامر الذي عاد على المدينة بالتقدم الازدهار ومن اهم المجالات التي عززها قطاع التعليم قطاع الصحة عندما رفده بالعديد من الكوادر الطبية التي عملت في الصيدليات والعيادات والمشافي الحكومية المدنية والعسكرية والمجلس البلدي في قسم الصحة والمسلخ والدوائر البيطرية اضافة الى علمهم في العيادات والصيدليات الخاصة وهو ما دفع المدينة الى الامام في مجال التطعيم باللقاحات والامصال ضد الامراض الوبائية الجارفة وفي مقدمتها الحصبة والكوليرا والسل والتفوئيد والطاعون وانشاء المشافي الحديثة وتراجع فكرة الطب الشعبي ووصفات العطارين والعشابين وجراحة الحلاقين واراحة الاهالي من تجشم عناء السفر لتلقي العلاج في مدينتي القدس والناصرة حيث المشافي الحديثة التي استها الجمعيات التبشيرية هناك ففي عام 1888م دشنت المدينة المستشفى الوطني على يد ابنائها العائدين من دراسة الطب في الجامعة الامريكية في بيروت والانجيلي عام1900م ناهيك عن المستشفى العسكري العثماني الخاص بقوات الجيش والامن القائم في السرايا والمشافي الميدانية التي اقامتها الدولة العثمانية في المخيمات او ما يعرف بمستشفى الشوادر والمدارس اذا ما اقتضى الامر كما هو الحال في المستشفى العسكري الذي اقامه الجيش العثماني للجيش في المدرسة الغزالية خلال فعاليات الحرب العالمية الاولى والتي عانت منها المدينة اشد المعاناة اسوة بغيرها من المدن الفلسطينية بسبب ظروف الحرب وانشغال الدولة في المجهود العسكري.

نظرة ختامية:-

- تعد مدينة نابلس من ابرز المدن الفلسطينية التي قادت فكرة الحداثة في المجتمع الفلسطيني وكانت قد حققت قدم السبق في تقبل فكرة التنظيمات العثمانية الحديثة واستيعاب منتجات الثورة الصناعية والحرص على ادخال الجديد منها.
- استطاعت المدينة بقواها الذاتية الحديثة ان تتغلب على الظروف الصعبة التي المت بها جراء انتشار مرض الكوليراعام1865/1866م واودى بحياة (2000)نسمة من سكانها خلال(18)يوما وظروف الحرب العالمية الاولى الصعبة 1918-1914م وزلزال عام 1927م وتعسف سلطات الانتداب البريطاني بحقها بسبب دورها الريادي في الحركة الوطنية الفلسطينية.